تعدُّدُ القُصودِ في المحادَثَةِ القُرْآنيَّةِ
قِراءةٌ تَداوليَّةٌ في قِصَّةِ إبراهِيم عليه السلام

أ.د. لُـمى عبد القادر خنياب
أستاذة الدراسات اللسانيَّة
جامعة القادسيَّة/كليَّة الآداب

Multiple Intentions in the Qur'anic Conversation
A deliberative Study in the story of Abraham
(Peace Be Upon Him)

Prof. Loma Abdelkader Khenyab
Professor of Linguistics
Al-Qadisiyah University/College of Arts

الملخَّص

يقوم البحثُ في فرضيته (تعدُّد المقاصد) على خصوصيَّة المحادثة القرآنيَّة، وبلحاظ ما تفترضه الدراسات اللسانيَّة أنَّ لكلِّ محادثة قصدًا، لما كانت المحادثة القرآنيَّة قطعة خطابيَّة سِيقتْ على نيَّة الإخبار بها؛ فسيكونُ متلقِّيها إزاء خطابَينِ: خطاب كلِّيّ (إطاريّ) يتمثَّل بالسُّورة القرآنيّة التي وردتْ فيها المحادثة.

وخطاب جزئيّ يتمثَّل بالمحادثة نفسِها، لـمَّا كان لكلٍّ من الخطابينِ قصدٌ، صار لدينا قصدَانِ؛ قصدٌ للخِطاباتِ الإطاريَّة، وآخر للمُحادثات التي تندرجُ فيها، وقد وقع الاختيار على مُحادثاتِ سيِّدنا إبراهيم عليه السلام مِصداقًا للمُحادثة القرآنيَّة، وقد جرى تقسيمُ المحادثات على النَّحو الآتي:

- محادثته مع نفسه.
- محادثته مع أبيه.
- محادثته مع أبيه وقومه.
- محادثته مع الذّات الإلهيَّة.

الكلمات المفتاحيَّة:

القصود، المحادثة، قصَّة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام

Abstract

The research on his hypothesis (polytheism) is based on the specificity of the Qur'anic conversation, and in the sense that the linguistic studies suggest that for each conversation, the Qur'anic conversation was not a piece of speech that was intended to inform it. And a partial speech is the conversation itself, because each of the two speeches intended to become our intended intent for the speeches of the framework and another of the conversations that fall in. The talks were chosen to our master 'Ibrahim (PBUH) model of the Koranic conversation, the talks were divided as follows:

- His conversation with himself
- His conversation with his father
- His conversation with his father and his people
- His conversation with the divine self

Key words:

Intention, Conversation, Story of Abraham (PBUH).

المقدِّمة

تتأسَّس فكرة البحث على خصوصيَّة المحادثة القرآنيَّة؛ إذ يفترض البحثُ اعتمادًا على الدِّراسات اللسانيَّة أنَّ لكلِّ محادثة قصدًا، ولربَّما لها قصدَان: الأوَّل قصد المتكلِّم، والثَّاني قصد المخاطَب الذي صار متكلِّمًا بالمناوبة الحواريَّة، لكن لـمَّا كانتِ المحادثةُ القرآنيَّة قطعةً خطابيَّة سِيقت على نيَّة الإخبار بها؛ فسيكون متلقِّيها إزاء خطابَينِ: خطاب كلِّيّ (إطاريّ) يتمثَّل بالسُّورة القرآنيَّة التي وردتْ فيها المحادثةُ، وخطاب جزئيّ يتمثَّل بالمحادثة نفسِها، لـمَّا كان لكلٍّ من الخطابَين قصدٌ؛ فصار لدينا قصدَان، قصدٌ للخطابات الإطاريَّة، وآخر للمحادثات التي تندرج فيها، قدْ تقتربُ هذه المقاصد من بعضها، وقد تتباعد، لكنَّنا بكلِّ الأحوال نحاول الكشفَ عنها.

إلى جانب ما تقدَّم من المقاصد، هناك مقاصدُ أُخر بَحثَتْها مباحث فلسفة العقل، واللغة على السَّواء، وقد حاولنا إيجازَها في توطئة تمحورتْ على ركيزَتَين:

الأولى: القصد، وماهيَّته، وأشكاله.

والثَّانية: عنيت بالمحادثة، وماهيَّتها، وخصوصيَّتها في التَّحليل اللسانيّ.

وقد تخيَّر البحثُ من بين المحادثات القرآنيَّة الكثيرة محادثاتِ سيِّدنا إبراهيم عليه السلام؛ لما لها من خصوصيَّة متأتِّية من شخصيَّته عليه السلام؛ إذ يفترض البحث أنَّ شخصيَّة إبراهيم تمثِّل مرحلة النُّضج في التفكير الإنسانيّ مقارنةً بسابقيه من الأنبياء عليهم السلام، ممَّا انعكس على محادثاتِه، وتشكيلِها اللغويّ، كما سيتبيَّن في القابل منَ البحث.

وقد قسَّم البحث هذه المحادثاتِ على النَّحو الآتي:

- محادثته مع نفسه.
- محادثته مع أبيه.
- محادثته مع أبيه، وقومه.
- محادثته مع الذَّات الإلهيَّة.
- محادثته مع النمرود.

والحمد للهِ مستحقُّ الحمد، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد الأنام أحمد، وآله الأبرار الأطهار وصحبه الأخيار.

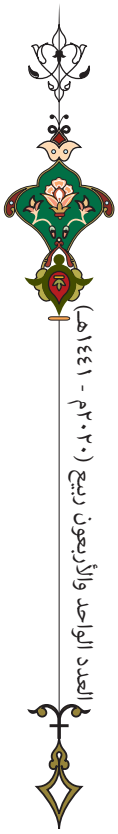

توطئةٌ في القصدِ، والمحادثة

أوَّلًا: القصد

القصديَّة واحدةٌ من أبرز المشكلات التي عُنيت بحلِّها فلسفة العقل؛ لذا فإنَّ القصديَّة التي ترتبط بالمتكلِّم ارتباطًا مباشَرًا مسألة أوسع من حصرها في درسٍ لغويّ؛ فقد حظي التَّمثيل العقليّ بشقَّيه: الوعي، والقصد بعناية علوم مُتجاورة على رأسِها الفلسفة؛ ثمَّ علم النَّفس، وعلم اللغة، وغيرها منَ العلوم التي تتَّخذ من قصد المتكلِّم وسيلةً للفهم، والتَّأويل.

ويشيرُ سيرل إلى أنَّ «معنى اللغة هو قصديَّة مستمدَّة، ويجب أن تُستمدَّ من القصديَّة الأصليَّة للعقل»[1]، وبهذا يكون سيرل مازَ بين نوعينِ للقصديَّة: الأولى: قصديَّة العقل، وسمَها بالأصليَّة، والثَّانية: قصديَّة اللغة، وقد أفصح عن ذلك بقولِه: «يجب أن تفسَّر قصديَّة اللغة بلغة قصديَّة العقل، وليس العكس؛ لأنَّ الأصوات، والعلامات تشيرُ إلى الأشياء، والحوادث التي ذكرتها فقط؛ لأنَّ العقل يفرض قصديَّة عليها. إنَّ معنى اللغة هو قصديَّة مستمدَّة، ويجب أن تستمدَّ من القصديَّة الأصليَّة للعقل»[2]. ويريد بالقصديَّة الأصليَّة الأفكارَ الموجودة في العقل يمكن التَّمثيل لها بالمعرفة العقليَّة لمكانٍ ما، وشكله وأبعاده، لكن رسم خارطة لهذا المكان، أو وجود خارطة له يمثِّل القصديَّة المشتقَّة من القصديَّة الأصليَّة، وعليه فالخارطة صورةٌ لما هو في الذِّهن.

(١) العقل: ١٢٩.

(٢) نفسه: ١٣٠.

«ويكمن المفتاح لفهم المعنى في ما يأتي: المعنى هو شكل قصديَّة مشتقَّة، والقصديَّة الأصليَّة، أو الدَّاخليَّة في فكر المتكلِّم تتحوَّل إلى كلماتٍ، وجملٍ، وعلاماتٍ، ورموزٍ.. الخ، إذا ما أُحسن النُّطقُ بهذه الكلمات... ويمكن للمتكلِّم أن يستعملَ القصديَّة التقليديَّة للكلمات، والجمل في اللغة لتأدية فعلٍ كلاميّ، وحين يؤدِّي المتكلِّم فعلًا كلاميًّا؛ فإنَّه يفرض قصديَّته على هذه الرُّموز»[1].

«ويذهب أنصارُ سيمياء التَّواصُل (بويسنس، بريتو، مونان، جرايس، أوستن، فتجنشتاين، مارتينيه) إلى أنَّ العلامةَ تتكوَّن من وحدة ثلاثيَّة المبنى: الدالُّ، والمدلول، والقصد»[2]؛ إذ إنَّ غاية القصد إفهامُ المخاطب؛ لذا فالعلاقة بين القصد، وقواعد إنتاج الخطاب باتتْ بدهيَّة.

ولـمَّا كان لكلِّ فعلٍ كلاميّ متلقٍّ مُفترَض، أو حقيقيّ، كان لا بدَّ من النَّظر في القصديَّة المشتقَّة والتَّواصل، وتبعًا لقصديَّة التَّوصيل تنشطر القصديَّة إلى: قصديَّة مُباشَرة، وهي حالاتٌ قصديَّة ذات مضمون مباشَر، وقصديَّة غير مباشرة، وهي حالات قصديَّة ذات مضمونٍ غير مباشَر تحتاج إلى عمليَّات ذهنيَّة، واستدلالات للوقوف عليها.

ويفتح هذا القولُ نافذةً على القول بالفعل الكلاميّ المباشر الذي تكون قصديَّته مباشرةً، والفعل الكلاميّ غير المباشر الذي يُفضي إلى قصديَّة غير مباشرة لأسبابٍ مقاميَّة مختلفة؛ وللوقوف على تفصيل هذا سنوردُ جانبًا منه.

الفعل الكلاميّ غير المباشر

حينما وضع أوستن معيارًا نحويًّا لتحديد المنطوق الأدائيّ، وهو (الفعل المضارع المبنيّ للمعلوم المثبت المسند إلى ضمير المتكلِّم) اصطدم بمنطوقاتٍ أدائيَّة خارجةٍ

(١) العقل واللغة والمجتمع: ٢٠٨.
(٢) استراتيجيَّات الخطاب: ١٨٥.

عـن هـذا المعيار من قبيل: (يُحال المديـر على التَّقاعد)، (فُتحت الجلسـة)؛ فالفعل مبنيّ للمجهول غير مسـند إلى ضمير المتكلِّم، ممَّا جعله يقولُ بفكرة الإنشاء الأوَّليّ، والإنشاء الصَّريـح[1]، بمعنى أنَّ «الإنشـاء الأوَّلـيّ هو كلُّ ما أمكـن اختزالُه، أو تحليلُه لإرجاعه إلى البنية النَّحويَّة يتصدَّرها فعلٌ إنجازيّ مسندٌ إلى المتكلِّم المفرد المعلوم في زمان الحال، وهو ما يجعل صيغ الأمر، والنَّهي، والاسـتفهام إنشاءاتٍ أوَّليَّة»[2]، عن هذا التَّمييز بين الفعل الصَّريـح، والفعل الأوَّليّ انبثقتْ فكرة الفعل الكلاميّ المباشر، وغير المباشر عند سيرل؛ فالأفعال المباشرة «هي التي تطابق قوَّتها الإنجازيَّة مرادَ المتكلم؛ فيكون ما ينطقه مطابقًا مطابقةً تامّةً، وحرفيَّة لما يريد أن يقول، وهو يتمثَّل في معاني الكلمات التي تتكوَّن منها الجمل، وقواعد التَّأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجمل، ويسـتطيع السَّـامعُ أن يصِلَ إلى مُراد المتكلِّم بإدراكه لهذينِ العُنصرَينِ معًا، أمَّا الأفعال غير المباشرة؛ فهي التي تخالـف فيها قوَّتها الإنجازيَّة مراد المتكلِّم؛ فالفعل الإنجازيُّ يؤدَّى على نحوٍ غير مباشر من خلال فعل إنجازيٍّ آخرَ»[3].

وبهـذا يكون سـيرل قد قـرَّر أنّ المتكلِّم لا يقصد مـا يقولُه دائمًا؛ بل قـد يتعدَّاه إلى مـا لم يقُلْه، وهو هنـا لا يقصد الزِّيادة على الهيأة التَّركيبيَّة للفعـل الإنجازيّ التي يترتَّب عليها زيادة في المعنى؛ بلِ المشـكلة في هذا النَّوع من الأفعال هو كيف يقول المتكلِّم شيئًا وهو يريد معنًى آخرَ؟[4].

ثمَّ كرَّس غرايس جهـوده للتَّمييز بين القوَّة الإنجازيَّـة الحرفيَّة (المباشرة)، والقوَّة الإنجازيَّة المسـتلزمة (غير المباشرة)، وقد شـغلتِ المحادثة، وأصول الحوار جلَّ اهتمام

(١) ينظر: نظرية أفعال الكلام، كيف ننجز الأشياء بالكلام: ٧٣-٧٧.
(٢) الإنشاء في العربيَّة خالد ميلاد: ٤٩٥.
(٣) آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر: ٨٠- ٨١.
(٤) آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر: ٨٢.

غرايس؛ فكان ما وسمَهُ بـ(نظريَّة الاستلزام الحواريّ)[1].

طبيعة الحجاج، وأثرها في القصد

مـازَ طه عبد الرَّحمـن بين نوعَينِ للحجاج: الأوَّل الأنمـوذج الوصليّ الذي أراد به نقلَ خبرٍ ما للمُستمع، وعليه يكون الخطاب صادرًا عنِ المتكلِّم، وحسب؛ أمَّا الثاني فهو الأنمـوذج الاتِّصاليّ القائم على التَّفاعُل الخطابيّ المزدوِج بمسـاهمة المتكلِّم، والمخاطب في الخطـاب، وبلحـاظ هذين الأُنموذجـينِ يختلف نظرُه للقصد؛ إذ يـرى أنَّ القصد في الأنموذج الإيصالي تمثِّل قصد المتكلِّم، وحسـب، لكنَّه ينطوي على طبقاتٍ من القُصود بمعنـى النيَّات، والمقاصد بمعنى الغايـات والأهداف، أمَّا تعـدُّد القصود؛ فمتأتٍّ من «القصد إلى إخبار المستمع بالحجَّة، والقصد إلى إخباره لهذا القصد نفسِه، وهكذا، ومنها إقناع المستمع، والقصد إلى تعريف المستمع بهذا القصد الأوَّل وهلمَّ جرًّا»[2].

«أمَّـا المقاصد؛ فمنها الأفعالُ التي يريد المتكلّم من المسـتمعِ القيامَ بها، ومنها أيضًا الأفعـالُ التي تدلُّه على إقناع المسـتمع، ومنها أيضًا الأفعال المشـتركة التي تفيده في بناءِ فعلِه الإقناعيّ»[3].

أمّـا القصـد في الأنموذج الاتِّصـاليّ؛ فيكـون مزدوِجًـا بلحاظ قصـدي المتكلِّم، والمخاطـب وجعله على شـقَّينِ: (تقاصد داخليّ)، و(تقاصد خارجـيّ)، «أمَّا الخارجيّ فتجلَّى في كون المتكلِّم يقصدُ بكلامه المستمع، وفي كون المستمع يقصد باستماعه المتكلِّمَ، كـما يتجلَّى في حصول الوعـي بالقصدَينِ عند كلَيهِـما؛ أمَّا التقاصُـد الدَّاخليّ فيتجلَّى في جانب المتكلِّم في كونه يقصد نفسه فيقصده المستمع، كما أنَّه قد يقصد المستمعَ في قصدِه لنفسِـه، ويتجلَّى في جانب المستمع في كون المستمع قد يقصد نفسه في قصده المتكلِّمَ، كما

(١) ينظر: الاستلزام الحواريّ: ٩٦.
(٢) التكوثر العقليّ: ٢٥٩.
(٣) نفسه: ٢٥٩.

أنّه قد يقصد المتكلِّم في قصده لنفسِه»[1].

وبهذا يمكننا القولُ: إنَّ الأنموذج الاتِّصاليّ الذي ينطوي على قصد مزدوجٍ يشمل ضِمنًا تعدُّد القُصودَ؛ إذ بتحوُّلِ المخاطب إلى متكلِّمٍ ثانٍ في أثناء التَّحاوُر، يصدقُ عليه تعدُّدُ القُصود كما هو الحال عند المتكلِّم الأوَّل.

ثانيًا: المحادثة

المحادثةُ هي الشَّكل الأساس لأصناف نشاط الإنسان اللغويّ، ويعرِّفها هاينه مان وفيهفجر بأنَّها: «نتيجة نشاط لغويّ بين مشاركَينِ اثنينِ في الفعل على الأقلِّ (شركاء التَّفاعُل)، وبذلك يفرِّق على أساس عدد المتكلّمين السّامعين المشاركين؛ أي شركاء التَّفاعُل من البداية بين المحادثة، والنصّ الذي ينتجه واحدٌ»[2]، وقد اختلف الدَّارسون في النَّظَر للمُحادثة؛ فمنهم من جعلها نصًّا، ومنهم مَن قال بأنَّها وحدةٌ مؤلَّفة من نصَّين[3]؛ ممَّا دفع إلى التذبذبِ في دراستِها بين تحليل الخطابِ، أو التَّعامُل معها بوصفِها نمطًا خطابيًّا خاصًّا؛ فكان ما يعرف بتحليل المحادثة؛ إذ يستبعِدُ برينكر المحادثةَ من حيِّز دراسة علم اللغة النَّصِّيّ على الرّغم من اعترافه بأنَّها تشكِّل وحدةً بنيويَّة متماسكة؛ لأنَّه يرى أنَّ النصَّ لا بدَّ أن يكون فعلًا فرديًّا ليحقِّق وظيفتَه التواصُليَّة[4]، بقولِه: النَّصُّ «تشكيلةٌ لغويَّة ذاتُ معنًى تستهدفُ الاتّصال، ويُضاف إلى ذلك ضرورة صدورهِ عن مشاركٍ واحدٍ ضمن حدودٍ زمنيَّة معيَّنة»[5].

(١) التكوثر العقليّ: ٢٦٦.
(٢) مدخل إلى علم اللغة النصّ: ٢١٧.
(٣) ينظر: نفسه: ٢١٦.
(٤) ينظر: التحليل اللغوي للنصّ: ٣٠.
(٥) مدخل إلى علم لغة النصّ، إلهام وحمد: ٩.

وضع غرايس نظريَّة في التَّحاوُر تأسَّست على مبدإٍ تداوليّ للتَّحاوُر، وسمَه بـ(مبدأ التَّعاون)، وهـو أن يلتزمَ طرفَا التَّحاور بالتَّعاون للوصول إلى القصد؛ فكانتِ الفرضيَّة الأساسُ انطلاقًا من هذا المبدأ هي «التفاعلات الحواريَّة تبلغ مقاصدَها بمقتضى التَّعاوُن القائم بين أطراف الحوار»[1].

وقد تفرَّع عن مبدأ التعاون هذا قواعدُ فرعيَّة، هي:

١. قاعدة الكمِّ، وفيها:

- لتكن إفادتُك المخاطب على قدر حاجته.
- لا تجعلْ إفادتك تتعدَّى القدر المطلوب.

٢. قاعدة الكيف، وفيها:

- لا تقلْ ما لا تعلم.
- لا تقلْ ما ليس لك عليه دليل.

٣. قاعدة الملاءمة والمناسبة التي تقتضي وجود مناسبة بين المقال والمقام.

٤. قاعدة الطريقة، أو الكيفيَّة، وفيها:

- لتحترزْ من الالتباس.
- لتحترزْ من الإجمال.
- لتتكلَّم بإيجاز.
- لترتِّبْ كلامك[2].

إنّ احـترامَ هـذه القواعد فضـلًا عنِ المبدأ العـامّ- مبدأ التَّعـاون- كفيلٌ بتوصيل مقاصدِنـا، والخـروج عن هـذه القواعد، أو عـن بعضهـا ينقلنا إلى مفهوم الاسـتلزام

(١) الاستلزام الحواري: ٩٨

(٢) ينظـر: إطـلالات على اللسـانيَّات (المنطق والمحادثـة): ٢/ ٦١٩-٦٢٠، واللسـان والميزان: ٢٣٨-٢٣٩، والاستلزام الحواري: ٩٩-١٠٠.

الحـواريّ، بمعنى أنَّ غرايـس وضع هذه القواعد؛ ليحدِّد طريقـة للوقوف على خروج الفعـل الكلاميّ من معنـاه الحقيقيّ إلى معنى مُسـتلزم؛ فأيُّ خرقٍ لهـذه القواعد يُخرج الفعل الكلاميَّ من معناه الظاهر إلى معنى خفيّ.

المحادثة القرآنيَّة

وبلحاظ المقولتَينِ السَّـابقتَين- أعني القصد والمحادثة- وما بينهما من تداخل ننفذ إلى موضوعنـا؛ إذ تتمظهران بقـوَّة في طبيعة المتن موضع الدِّراسـة (المحادثة القرآنيَّة)؛ وتأتي المحادثة القرآنيَّة في سـياق النصِّ القرآنيّ، وليسـتْ هي القـرآن كلّه؛ بل هي نصٌّ يقـع في ضمن نصٍّ أكـبر، وعليه فهي تُسـاق، وتوظَّف لمقاصد معيَّنة قـد يتوصَّل إليها مـن خلال قراءتها في ظلِّ السِّـياق النَّصيّ، والمقاميّ الذي وردتْ فيه وهذا هو الشَّـكلُ الأوَّلُ للقصد المتعلِّق بالمحادثة القرآنيَّة، أمَّا الشَّـكلُ الثَّاني؛ فيتمثَّل بالقصد الذي يريدُه أطـرافُ المحادثة، ومن هُنا جاءتْ فكرةُ (تعدُّد المقاصد في المحادثة القرآنيَّة) عُنوانًا لهذه الدِّراسة.

وفي القـرآن الكريم جملـة من المحادثات تقع في ضمن بنيـة القصص القرآنيّ، منها ما كان أحد طرفيها نبيّ الله إبراهيم عليه السلام، وتتوزَّع هذه المحادثات بحسب الطرف الآخر للمحادثة:

- محادثاته مع الله جلَّ وعلا.
- محادثاته مع الملائكة.
- محادثته مع أبيه.
- محادثاته مع أبيه وقومه.
- محادثته مع النمرود.

- محادثته مع إسماعيل عليه السلام.
- محادثته مع نفسه.

تكشف شخصيَّة النبيّ إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم عن تطوُّر التَّفكير الإنسانيّ في حال مقارنته بطفولة التَّفكير البشريّ المتخيَّلة في شخصيَّة النبيّ آدم عليه السلام؛ إذ سقطتِ الأخيرة في فخِّ الإغواء، وخسرتِ الجنَّة على حين سعتِ الأولى إلى التفكُّر، والتدبُّر، والحِجاج، والكشف عن الدَّلائل للوصول إلى اليقينِ سعيًا وراءَ مرضاة الله؛ فالجنَّة، ويثبتُ القرآنُ الكريمُ الجدلَ، والحِجاجَ لإبراهيمَ عليه السلام غير مرَّة[1]؛ لذا لا تكاد تخلو محادثةٌ من محادثاتِه من الحجاج، والاستدلال بشِقَّيهِ المنطقيّ، واللُّغويّ على اختلاف متلقِّيه، ويرصد البحث حضورًا واضحًا للآليَّات اللغويَّة الحجاجيَّة موظِّفًا إستراتيجيَّات لغويَّة محدَّدة للوصول إلى غايته، ومن بين الإستراتيجيَّات الأوفر حظًّا كان الاستفهام الحجاجيّ، ولا عجبَ في ذلك؛ لأنَّ السُّؤال هو مفتاحُ التَّفكير، ومن ثمَّ الوصول إلى اليقين، وهذا يتَّسق مع طبيعة شخصيَّته عليه السلام كما تقدَّم القولُ.

تكشفُ محادثات نبيّ الله إبراهيم عليه السلام عن محطَّات حياته الفكريَّة؛ بل محطَّات معرفته بالذَّات الإلهيَّة، واختبارًا لهذه المعرفة؛ لذا يمكن لكلِّ محادثةٍ أن تحمل اسمًا، أو أكثر من أسماء الله الحُسنى الكاشفة عن الصِّفات الأزليَّة فيه تعالى.

المحادثة الأولى: (محادثتُه مع نفسه)[2]

قبل النَّظر في المحادثة، وتحليلها لابدَّ من المرور على استبعاد هذا الضَّرب من

(١) انظر الأنعام: ٨٠، و هود: ٥٢، والبقرة: ٢٥٨.

(٢) يمكن النظر إلى المحادثات في القرآن الكريم على نمطَين: الأوَّل المحادثات البسيطة، وهي المحادثات الأحاديَّة ذات زمان ومكان محدَّدين وأشخاص محدَّدين، ومحادثات مركَّبة تنطوي على أكثر من محادثة ثانويَّة تتباين زماناً ومكانًا وشخوصاً إلى جانب المحادثة الإطاريَّة، كما هو الحال في هذه المحادثة، إذ تشتمل على جملة محادثات: الأولى محادثته لأبيه ولم يظهر فيها إلَّا=

ضُروب الحـوار أعني حديثَ النَّفس من تحليل المحادثة من لدن الدَّارسـين مشـترطين توافـر متكلِّمين يتبادلان الحوار (متكلِّم / سـامع)، فضلًا عن التَّنـاوُب الإجباريّ بين المتكلِّمين[1]، ولي في هذا نظرٌ، لاسـيَّما في سياق هذه المحادثة، ومثيلاتها التي تنشطر فيها الذات المتكلِّمة إلى شـطرَين، أو أكثر، واحدٌ يمثِّل صـوت الذَّات، والثَّاني يمثِّل صوتَ الآخـر، ما يدعم فرضيَّتي هذه ما ذُكِرَ عند الدَّارسـين من تعدُّد الأصوات في الخطاب، وإذا كان باختين قد ركَّز على الجانب الأدبيّ في دراسته لأدب دوستويفسكي[2]؛ فقد أكَّد دكرو علاقة إلقـاء القول بمظهر تعدُّد الأصوات «وهو تعدُّد وجهات النظر المعبَّر عنها في قـولٍ واحدٍ»[3]. من هنـا أنظر إلى هذه المحادثة على أنَّهـا ذات متكلِّمين (صوتيـنِ)، أمَّا عـن المناولة، والتَّناوب الإجباريّ في المحادثة فلـمْ «يتوصَّل بمبدأ تناوب المتكلِّمين إلَّا إلى تصـوُّرٍ موجـز للغاية لبنيـة النصِّ، لا يعطي بنيـة المحادثات المتعـدِّدة حقَّها بأيَّة حال»[4].

وبالعود إلى محادثة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام يمكننا القول: إنَّها تمثِّل أوَّل رحلة البحث عن الإله، قال تعـالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

=صوته (الآية ٧٤)، والثاني محادثة النفس موضع البحث هاهنا (٧٥-٧٩)، والثالثة حجاج مع القوم (٨٠-٨٢)، ونصّ إخباريّ متمِّم لها (٨٣-٨٧).

(١) ينظر: مدخل إلى علم لغة النصّ: ٢١٨.

(٢) ينظر: قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي: ٩ وما بعدها.

(٣) القاموس الموسوعي للتداوليَّة (تعدُّد الأصوات وإلقاء القول): ٣٤٧.

(٤) مدخل إلى علم لغة النصِّ: ٢٢٣

﴿تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩]

تمثِّل هذه الآيات مرحلة الشكِّ بالأرباب الأرضيَّة، يبدأ عليه السلام بالمحادثة بالسُّؤال الموجَّه لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾، لكن النصّ يسكتُ عن جواب أبيه عن السُّؤال؛ فيردُّ هو بالإيجاب المضمر: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. إنَّ قوله عليه السلام: (أراك) يريد به الرؤية القلبيَّة لا الرؤية البصريَّة[1]؛ فهي ظنِّيَّة، وليستْ يقينيَّة، ممَّا يثبت أنَّه عليه السلام في مرحلة الشكِّ، ولم يصِلْ إلى اليقين بعدُ، أمَّا ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ...﴾؛ فهي (رأى) البصريَّة اليقينيَّة[2] في النصِّ الكريم لفت لانتباه إبراهيم عليه السلام إلى السَّماء، والتفكُّر فيها، ففاعل الرُّؤية القلبيَّة إبراهيمُ عليه السلام، وفاعل الرؤية البصريَّة الله جلَّ وعلا؛ فتحوُّله عليه السلام من فاعل الرؤية الظنِّيَّة إلى مفعول الرُّؤية اليقينيَّة يؤكِّد هذا الفهمَ تتمَّة الآية الكريمة بتعليل الإراءة اليقينيَّة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ بدلالة بناء يفعل (يكون) على الحال نلمس أنَّه عليه السلام لم يكُنْ موقنًا بعد، بخلاف مَن ذهب إلى ذلك من المفسِّرين، والدَّارسين، وفي حال تحيُّره هذا امتدَّت له العناية الإلهيَّة لتضعه على سبيل الهدى؛ فتقلب نظره في السَّماء؛ فكان حديثُه مع نفسه، ولـمَّا كان إبراهيم عليه السلام منطقيًّا في تفكيره؛ فكأنَّه أضمر مسبقًا صفاتٍ للربِّ يبحث عنها حوله مفارقةً لأربابِ قومِه، وهي:

(دوام الوجود) الدائم

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٧ / ٣١٤.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٧ / ٣١٥.

إلـهٌ يحضر تارةً، ويغيب أُخرى لا يستحقُّ العبادة في نظره، الفضاء الزمنيّ الذي يلفُّ المحادثة ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ يقترن بسكون المخلوقات، وغيابها للرُّقاد؛ فوجود الكوكب في السَّماء دعاهُ إلى النَّظر إليه بأنَّه مفارقٌ لباقي المخلوقات ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، لكنَّه حين أفل فارق الوصف المنشود فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾.

الأكبر

يبدو أنَّ العظمة، وكبر الحجم من الصّفات الربَّانيَّة التي أضمرها عليه السلام في نفسه ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ لكنّها حين وضعت في مقابل الدّوام كانتِ الغلبةُ للوجود المطلق ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وفي لحظة الحقيقة هذه أعلن عليه السلام إيمانه، ويقينه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال المرتضى: «وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله تعالى»[1]، وقال ابن عاشور: إن «ذَلِكَ كَانَ اسْتِدْلَالًا فِي نَفْسِهِ قَبْلَ الْجَزْمِ بِالتَّوْحِيدِ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ بِإِلْهَامٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الْأَنْعَام: ٧٥]، مَعْنَاهُ نُرِيهِ مَا فِيهَا مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ قَبْلَ أَنْ نُوحِيَ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: رَأَى كَوْكَباً بِمَعْنَى نَظَرَ فِي السَّمَاءِ فَرَأَى هَذَا الْكَوْكَبَ، وَلَمْ يَكُنْ نَظَرَ فِي ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: قَالَ هَذَا رَبِّي قَوْلًا فِي نَفْسِهِ عَلَى نَحْوِ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ الْمُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ حَدِيثُ النَّفْسِ...، وَقَوْلِهِ: هَذَا رَبِّي، وَقَوْلِهِ: لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، وَقَوْلِهِ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي، كُلُّ ذَلِكَ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقَائِقِهِ مِنَ الِاعْتِقَادِ الْحَقِيقِيِّ. وَقَوْلُهُ: قَالَ يَا قَوْمِ، هُوَ ابْتِدَاءُ خِطَابِهِ لِقَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ الْحَقُّ لَهُ فَأَعْلَنَ بِمُخَالَفَتِهِ قومه حِينَئِذٍ»[2].

(١) تنزيه الأنبياء: ٤٠

(٢) التحرير والتنوير: ٧/ ٣٢٥.

إنَّ قراءة المحادثة على النَّحو المذكور سلفًا يُظهر قصد إبراهيم عليه السلام في البحث عن الذات الإلهيَّة، لكن قراءة بعض المفسِّرين، ومن تبعَهم من الدَّارسين أنَّ هذه المحادثة من قبيل حِجاج قومِه، وما تساؤلُهُ عن الكوكب إلَّا مجاراة لهم ليصل لتفنيد دينِهم[1]، وقد تابع بعض المحدثين هذا الظنَّ؛ فرأى د. محمَّد إقبال أنَّ هذه الآية بعد النبوَّة، وهي حوارٌ له مع قومه معتمدًا في ذلك على ابن جزي[2]، إنَّ تحديد الفضاء الزمنيّ للمحادثة ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ يثبت أنَّه عليه السلام كان وحيدًا؛ إذ أُخبر عنه بالمفرد، ولم يكن مرافقًا لأحد في رحلته هذه إنْ هي إلَّا رحلة ذهنيَّة، وأنَّ هذه المحادثة منعزلة زمنيًّا عمَّا قبلها من كلامه مع أبيه بدلالة (لـمَّا) الحينيَّة، وما بعدها من حِجاجه لقومِه، وكذا يتجاذب مع هذا العدول عن إستراتيجيَّة الاستفهام الحجاجيّ التي شاعت في محادثاته الحجاجيَّة مع قومه، وأبيه، والنَّمرود، كما سيأتي، وهذا يثبت أنَّه في حالة حيرةٍ مُستفتيًا قلبَه.

إنَّ قراءة هذه المحادثة في سياق المحادثة الأكبر، وفي سياق السُّورة بتمامِها بلحاظ طرفي الخطاب فيها: الله جل جلاله، والرَّسول الأعظم صلى الله عليه وآله يكشف عن أنَّ الاستعداد الفطريّ، والحاجة الروحيَّة لمعرفة الله تدفعه للتفكُّر، ونبذ الآلهة الأرضيَّة؛ فتبدأ رحلته بالبحث عن الله، وهذا كلُّه سابق للنبوَّة؛ فمن كان كذلك تطاله العناية الإلهيَّة لتهديه سبيل الرَّشاد في هذا مقاربة لحال المخاطب (الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله)، فقد كان متفكِّرًا في الخلق والملكوت قبل نبوَّته حتَّى أُوحي إليه فكان حقُّ اليقين.

إلى جانب هذا فقد يلوحُ قصدٌ آخر، وهو أنَّ سورة الأنعام ترصد نِعم الله جلَّ ثناؤهُ على عباده، وأنبيائه، ومن بين هذه النِّعم الرّشاد، والهداية بعد التيه، والحَيرة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾، وهذه إراءةُ

(١) وقد ذكر المفسِّرون هذا الرأي إلى جانب الرأي السابق القائل بأنَّ المحادثة من قبيل حديث النفس. ينظر: الكشَّاف: ٢/ ٣٦٦-٣٦٧

(٢) ينظر: دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيريَّة: ٥٦.

إفهـام وتوفيق، وهذا أيضًا يصل أوّل المحادثة بآخرها ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾؛ فهو توفيقٌ، وهدايةٌ أيضًا.

المحادثة الثَّانية: محادثته مع أبيه[1]

وهـي المحادثـة الوحيدة مـع أبيه منفردًا باقـي محادثاته مع أبيه يكـون فيها الأخيرُ مجموعًـا مع قومِه، و يمكن لهذه المحادثة أن تحمل الدَّعوة بالحسـنى عنوانًا لها، يبدو أنَّ هذه المحادثة لاحقةٌ للمحادثة السَّابقة؛ ففي حواره السَّابق مع أبيه كان شاكًّا غير متيقِّن ممَّا يفكِّر فيه، لكن لـمَّا هيَّأ له الله تعالى ظروفَ التيقُّن، ويسَّر له سبُلَ التثبُّت، والاطمئنان عاود محادثة أبيه ثانية؛ فكانت هذه المحادثة بينهما.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

يتمحور هذا المشـهد الحواريّ بين إبراهيم حامل الرِّسـالة، و أبيه المولع بآلهة آبائه على التلطُّف في القول؛ فهو حوار بين نقيضَين كان فيه إبراهيم مُبادرًا به متبنيًا له خطاب التلطُّـف، والتودُّد، ولـمَّا كانت القصديَّة لا تنفكُّ عـن اللغة[2]؛ فنجد أنَّ دلالة التلطُّف

(١) سـبق لنا دراسـة هذه المحادثة في بحث سابق بعنوان (الإسـتراتيجيَّة التوجيهيَّة في سورة مريم في ضـوء تداوليَّات الخطاب)، في مجلَّة لارك للفلسـفة و اللسـانيَّات والعلـوم الاجتماعيَّة، كليَّة الآداب، جامعة واسط، كانون الثاني ٢٠١٧، ج٢، ع٢٤: ١١-٣٧.

(٢) ينظر: التواصل والحجاج (عبد الرحمن طه): ١٠.

تترشَّح من جملة أمورٍ منها:

١. استعمل إستراتيجيَّة النِّداء التودُّدي[١] بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ جاعلاً إيّاها مطلعًا لكلّ حُججه؛ فتكررت أربع مرَّات، والنِّداء بوصفه فعلًا لغويًّا، توجيهيًّا غير مقصود في ذاتِه؛ بل يلفت انتباه المخاطب إلى محتوى قضويّ يشتمل عليه الفعل اللغويّ اللاحق لفعل النداء، وهو هاهنا الاستفهامُ.

٢. بعد أن استهلَّ إبراهيمُ عليه السلام كلامَه بقوله: ﴿يا أبتِ﴾ عمَد إلى توظيف الاستفهام بوصفِه حجّةً يلقيها على أبيه بسؤاله عن سببِ عبادته لما لا جدْوى منه، في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾؛ فهو لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني شيئًا، الله السّميع البصير الغنيّ هذه الصّفات الأزليَّة في الذَّات الإلهيَّة اتَّخذ منها إبراهيم عليه السلام وسيلة لتسفيه آلهة أبيه وقومه، إنَّ انتخاب إستراتيجيَّة السؤال أليق من سواها في هذا المقام لسببين: الأوَّل: هو دفعه متلقِّيه إلى رصد الحجج، والبحث عن دعائم عبادته، وبعد البحث لا يجد حجّةً يدفع بها عن آلهته، قال ابن عاشور: الاستفهام «مكنًّى به عن نفي العلَّة المسؤول عنها بقوله: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ﴾، فهو كناية عن التَّعجيز عن إبداء المسؤول عنه؛ فهو من التورية في معنيَين يحتملهما الاستفهام»[٢].

أمَّا السَّبب الثاني فإنَّ الاستفهام لتبيين السَّبب هو أليق بخطاب التلطُّف من النَّهي، والأمر، لاسيَّما في أوَّل التَّحاور؛ فكان فعل الاستفهام بمثابة مقدِّمة أولى.

٣. التَّحوُّل إلى فعل إخباريّ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، ثمَّ التَّحوُّل إلى فعلٍ أمريّ: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ليكونا- فعلَي: الإخبار، والأمر- بمثابة مقدّمة ثانية، لتوصل إلى النّتيجة المنشودة ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ

(١) هو تلطف باستدعاء النسب. ينظر: البحر المحيط: ٦/ ٢٣٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/ ١١٤.

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾، وقدِ انتُخِب فعل النَّهي ليكون خطابًا حاسمًا قاطعًا، وإن كان النِّداء ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ مازال يلقي بظلال التودُّد على الخطاب فضلًا عن انتخابه صفة ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ لبثّ الطّمأنينة في نفسِه، ناهيك عن تعزيز الحجَّة بذكر العواقب ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ ... ﴾ وهو توجيه يعاودُ فيه إبراهيم عليه السلام استراتيجيّة التَّوجيه المتأدِّب[1].

وبالعود إلى شكلِ الحوار فهو حوار تنازعيّ يجمع بين نقيضَينِ، نجد أنَّ أباه (الطَّرف الثاني) قد تبنَّى خطابَ التَّهديد، والوعيد، وتشفُّ اللغة عنه فيما يأتي:

١. عدل آزر أبو إبراهيم عن مناداة ابنه بالمثل؛ فلم يقُلْ له: (يا بني) في مقابل قول إبراهيم: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ زجرًا لهُ[2].

٢. انتخاب آزر الاستفهام الحجاجيّ ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ الخارج عن حدِّ طلب الإجابة إلى الإنكار، والاستبعاد، رفضًا لعرض إبراهيم مشوبًا بالغضب لآلهتِه.

٣. التحوُّل إلى خطاب التَّهديد المباشر ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾ باستعماله فعلَ الأمر في دلالة على الحسم، والقطع فضلًا عن الدَّلالة المعجميَّة للأفعال: (تنته، أرجمنك، اهجرني) المساوقة لخطاب التَّهديد، والعُنف.

ويُعاود إبراهيم عليه السلام بعد هذا خطابَه التودُّديّ ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ مختتمًا حواره مع أبيه بفعل توجيهيّ آخر، وهو فعل الرَّجاء ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾ بعد أن يئس من استجابة أبيه، وقومه لما يدعوهم إليه.

(١) ينظر: إستراتيجيات الخطاب: ٣٦٠.

(٢) ينظر: الكشَّاف: ٦٣٨، والبحر المحيط: ٦/ ٢٤٠.

المحادثة الثَّالثة: محادثاته مع أبيه وقومه

تمثِّل هـذه المحادثات مرحلةً من حيـاة إبراهيم عليه السلام الدَّعويَّـة، وهي مرحلة إعلان التمرُّد على الآلهة وسـدنتها، وقد هيمن عليها الإسـتراتيجيَّة الحجاجيَّـة التي أخذ فيها الاسـتفهام الحجاجـيّ الأداة الفاعلـة في دحـض الأكاذيب، وردّ الزَّيـف، وقد ورد في القـرآن الكريـم خمس محادثـات بينه عليه السلام، وبين قومـه وهي على التَّوالي بحسـب ترتيب النُّزول:

- الشعراء/ ٦٩-٨٩.
- الأنعام/ ٨٠-٨٤.
- الصافات/ ٨٣-٩٩.
- الزخرف/ ٢٦-٢٩.
- الأنبياء/ ٥١-٧٢.

ويتحـرَّك القصـدُ في هذه المحادثـات جميعها بـين القصد الإعلامـيّ، وهو إخبار المخاطـب بشيء مـا وإثارة قناعاته، والقصـد الاتِّصاليّ، وهو إخبـار المخاطب بالقصد الإعلاميّ، وتحقيق الشَّراكة بين طرفَي الخطاب[1].

أمَّا المحادثة الواردة في سورة الشُّعراء فهذا نصُّها:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى

(١) ينظر استراتيجيات الخطاب: ١٩٣

خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩].

إذْ يفتتح عليه السلام حديثه بالسُّؤال ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾، وهو مدرك تمامًا ما يعبدون لكنَّه سأل مُنكرًا عليهم هذه العبادة، ومع هذا فقد أجابوه؛ فأردف متسائلًا ﴿ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ ... ﴾ وهو سؤال إنكاريّ؛ فقد قال لأبيه قبل هذا الأوان: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ ﴾[1]، ثمَّ واصل مستفهمًا: ﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾؛ فالإله السَّميع النَّافع الضارّ كان حجَّة إبراهيم على خصمه، أفضى هذا إلى إقرار الخصم بأنَّ عبادتهم محض تقليدٍ، وأمام هذا الإقرار بالهزيمة ﴿ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ أعلن عليه السلام القولَ الحسمَ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾؛ ثمَّ يتحوَّل إلى النصِّ المفارق الإله الذي يملك الصِّفات المنزَّهة جميعها: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾؛ ثمَّ يتحوَّل بالخطاب إلى الله جلَّ وعلا جاعلًا دعاءه يتأرجح بين صفتَي النَّفع، والضرِّ الإلهيَّتين: جاعلًا صفة النَّفع بفعل الأمر الخارج مخرج الدُّعاء: (هب لي، واجعل لي، واجعلني، واغفر لأبي)، أمَّا صفة الضرّ فقد تخيَّر لها النَّهي قالبًا تركيبيًّا: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي ﴾، وفي هذا تلويحٌ واضحٌ بالتَّرغيب بربِّ المنافع، والتَّرهيب بضرر الله الذي لا عاصمَ منه، يغلب صوت إبراهيم عليه السلام في هذه المحادثة على صوت قومِه؛ فبعد إقرارهم بتقليد عبادتهم سكتوا، ولم يُسمعْ لهم ردٌّ.

أمَّا المحادثة الواردة في سورة الصَّافَّات فهي سلسلة سؤالات مُفحمةٍ من قبل

(١) مريم: ٤٢.

إبراهيم لا يتسنَّى لقومه الإجابة عنها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٨٣-١٠٢].

تنطوي هذه المحادثة على جملة محادثات متفرِّقة زمانًا، ومكانًا، وشخوصًا تنتظم في خيطٍ واحدٍ، وهو الحِجاج مع قومه لإعلاء الحقِّ، ويمكن توزيع المحدثات الضمنيَّة على النحو الآتي:

- محادثة القوم/ ٨٥-٩٠.
- محادثة الأصنام/ ٩١-٩٢.
- محادثة القوم ثانية/ ٩٣-٩٩.
- محادثة مع الذات الإلهيَّة (دعاء)/ ١٠٠.
- محادثة مع إسماعيل عليه السلام/ ١٠٢.

إنَّ هذه المحادثات المجملة يرِد تفصيلها في سورة الأنبياء، ولـمَّا كانت الصافات سابقة من حيث النزول لسورة الأنبياء؛ فإن هذا يوحي بعلاقة إجمال، وتفصيل بينهما تأتي الأولى مجملة مختصرة لتفصلها الثانية تفصيلًا؛ لذا سنعمد إلى دراسة ما جاء في السُّورَتينِ بالمقابلة بينهما بحسب الأحداث.

يـرد في محادثة إبراهيم لقومه قبل تكسـير الأصنام مـا نصّهُ: ﴿ ... مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾.

هـذه المحادثة المجملة أحادية الصَّوت لم يظهرْ فيها إلَّا صوت إبراهيم عليه السلام بمتوالية أسـئلة لا جواب لها عند المسـؤول، السُّـؤال الذي يبادرنا هاهنا هو: هل سـكت القوم فعلًا، ولم يجيبوا؟ الجواب نجده في سـورة الأنبياء، ولو سُئل لـمَ الأنبياء؟ لأنَّها الوحيدة التي تتضمَّن حادثة التَّحريق بعد الصَّافَّات.

فيكون الجواب: (لا)، وإليك الجزء الموازي لهذه المحادثة معهم في الأنبياء:

- ﴿ ... مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ؟
- قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ .
- قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .
- قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ؟
- قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٧].

وهنـا تظهـر لنا إجابتان، الأولى: ترتكـزُ على التَّقليد في عبادة الأصنام، وقد سـبق لهم قول ذلك: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٤]، والثَّانية التَّشكيك في الدِّين الجديد، لكن هذا لا ينفي تشـكُّكهم بدينهم جرَّاء محاكاة إبراهيم للتَّفكير المنطقيّ فيهم بإثارة الأسئلة الحجاجيَّة؛ فبدا التحيُّر في قولهم: ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾؟ وهنا يظهر أثر القصد الاتِّصاليّ؛ فالتشـكُّك الذي بعثتْ عليه أسـئلة إبراهيم عليه السلام ضربٌ من المشاركة في التدبُّر.

بالمقاربـة بين محادثتي (الصَّافَّات/ الأنبيـاء) نجد أنَّ قوله في الأنبياء عليه السلام: ﴿ وَتَٱللَّهِ

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، هو التفاتٌ من خطاب القوم إلى خطاب الذَّات؛ فهو لم يعلنْ هذا الأمر أمامَهم؛ بل قاله في نفسه، والدَّليل على هذا ما جاء في الصَّافَّات: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾؛ فنلمس بالجمع بين النصَّينِ أنَّه أنجز تهديدًا في نفسِه نتج عنه فكرة التمارُض.

ثمَّ يأتي مشهد محادثة الأصنام، وتكسيرها: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، ويلفت الانتباه فيه جملة أمور، منها توجيه السُّؤال للأصنام مع يقينه أنَّها لا تردُّ؛ إذ لا يمكن للجوامد أن تكون مخاطَبًا حقيقيًّا في اللغة، تقول آن ريبول: «ضمير الشَّخص الثَّالث هو الوحيد الذي يمكن أن يُستعمل في الدَّلالة على الجوامد»[1]، وتريد بضمير الشَّخص الثَّالث ضمير الغائب؛ ثمَّ الأسئلة: ألَا تأكلون؟ مالكم لا تنطقون؟ أسئلة خرجت من معنى السؤال الحقيقيّ الذي يستدْعي جوابًا إلى أسئلة يُراد بها السخرية، والاستهزاء، وهنا تنشطر الذَّاتُ المتكلِّمة- بحسب دكرو- فالسُّخرية شكلٌ من أشكال تعدُّد الأصوات في الخطاب؛ إذ تقول شيئًا، وتقصد شيئًا آخر[2].

وكان بإمكانه أن يستهزئَ بها بالوعيد أو التَّقرير، لكن طبيعة التَّفكير الاستدلاليّ دفعته لاتِّخاذ الاستفهام سبيلًا للسخرية، علمًا أنَّ هذه الصِّفات ليست صفاتٍ إلهيَّةً، وليست هي التي كان يحاجج بها قومه؛ بل هي صفاتٌ بشريَّة، لكنَّه ساقها للحِجاج؛ إذ إنَّ هذه الأصنام لا تصل حتَّى مصافِّ البشر، فكيف تكون آلهة؟ فحطَّمها؛ لأنَّها لا تستحقُّ العبادة.

أمَّا المشهد الآخر الذي يحيط بتتمَّة المحادثة، فهو مشهدُ المواجهة، والتحريق فسأعرضه على النَّحو الآتي:

(١) القاموس التداوليّ (تعدُّد الأصوات وإلقاء القول): ٣٥٩.

(٢) ينظر: القاموس الموسوعيّ للتداولية (تعدُّد الأصوات وإلقاء القول): ٣٥٣

- فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ .
- قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .
- قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ .
- ... وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ .

سكتَ النصُّ القرآنيُّ في محادثة الصَّافَّات عن الردِّ على كلِّ الأسئلة التي طرحها إبراهيم الحقيقيّة منها، والمجازيَّة، ولم يظهرْ لقوم إبراهيم جوابًا إلَّا الأمر بحرقه، ممَّا يؤكِّد هامشيَّة الجواب، ومركزيَّة السُّؤال في المحادثة.

وبمقاربة هذا بما جاء في الأنبياء:

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٨-٧١].

- قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ؟... قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ؟
- قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ !.

«يؤثر القصد بمعنى إرادة فعل الشيء في الحكم على الفعل نفسه؛ فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهريّ

فقط»[1]؛ فهو لم يرد أن يسألوا كبيرهم حقًّا؛ بل كان ردُّه متضمِّنًا لمزيج من السخرية، والحِجاج، ممَّا جعل قومه يعودون إلى أنفسِهم ويتشكِّكون في دينِهم[2] ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لكن العزَّة بالإثم غلبتْ عليهم ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، وهنا أدركوا الفخَّ الذي أسقطهم فيه إبراهيم؛ فقد صار ملء أعينهم خواء عبادتهم؛ فغادروا المحاجَّة إلى اغتيالِه بالحرق ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

المحادثة الرابعة: محادثاته مع الملائكة

وردَ حوارُ الملائكة مع إبراهيم عليه السلام في أربعة مواضع في القرآن الكريم، وهي على النحو الآتي بحسب نزولها:

١. هود: ٦٩-٧٦.

٢. الحجر: ٥١-٥٨.

٣. الذاريات: ٢٤-٣٠.

٤. العنكبوت: ٣١-٣٣.

يدور حوار الملائكة معه في أمرين، الأوَّل: البشارة بإسحاق عليه السلام، والثَّاني: في قوم لوط، وقد رصد البحثُ التقارُبَ بين محادثة هود، ومحادثة الذَّاريات:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٖ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢

(١) استراتيجيات الخطاب: ١٨٩

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن:١٥٧

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٦٩-٧٦].

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥١-٦٠].

ومحادثة الحجر، و محادثة العنكبوت، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١ - ٣٣].

وسنورد النُّصوصَ القرآنيّة على شكل محادثة ليتسنّى لنا المقاربة بين المحادثات:

هود:

- الملائكة: سلامًا.

- إبراهيم: سَلَامٌ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.
- الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.
- سارة: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.
- الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾... يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

الذاريات:

- الملائكة: سَلَامًا
- إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.
- الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.
- سارة: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.
- الملائكة: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

تشترك المحادثتانِ بسلام الملائكة، و ردّ إبراهيمُ السَّلامَ عليهم، إكرامه للملائكة بذبح عجلٍ لهم، توجُّسه خيفةً منهم؛ لأنَّهم لم يأكلوا من زاده، البشرى بالغلام، ظهور ساره بوصفها طرفًا ثالثًا في الحوار، وتنفرد محادثة (هود) بالحديث في قوم لوط، ووصف كلام إبراهيم بالجدل المنهيِّ عنه، ممَّا يدفعنا إلى القول بأنَّ القصد من المحادثتَينِ البشارة.

الحجر:

- الملائكة: سلامًا.
- إبراهيم: إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ .
- الملائكة: لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ .
- إبراهيم: أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ .
- الملائكة: بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ .
- إبراهيم: وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ... فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟.
- الملائكة: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ .

العنكبوت:

الملائكة: إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .

إبراهيم: إِنَّ فِيهَا لُوطًا .

الملائكة: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

يظهر من خلال المقاربة بين المحادثتين أنّ المحادثة الثانية بمثابة تتمّة للأولى؛ إذ بدأت الثانية من حيث انتهتِ الأولى، ويبدو أنّ محادثتَي: (هود، والذاريات) كان بؤرة الحوار فيهما هي البشارة؛ فظهرت فيها تفصيلاتها بعناية الإكرام بالعجل السَّمين ظهور ساره عنصر مشارك بالمحادثة، على حين أنَّ محادثتي (الحجر، والعنكبوت) تمحورَتا حول موضوع قوم لوط حتَّى أنَّ محادثة العنكبوت اقتصرت عليه.

وقد تنبَّه د. فاضل السّامرائيّ إلى المقابلة بين محادثتَينِ منها، وهما محادثتا (الذَّاريات، والحجر)، مشيرًا إلى أنَّ لكلٍّ منهما سياقًا مختلفًا عن الأخرى؛ فسياق (الذَّاريات) سياق

إكرام، وترحيب بدلالة ردِّ السلام، والإكرام بنحر عجل، في حين سياق (الحجر) سياقٌ فيه خوفٌ، ووجل بادٍ بدلالة غياب ردِّ التحيَّة، والإكرام وغير ذلك[1]، وهذا يتَّفق مع ما ذهبنا إليه وهو أنَّ محادثتي (هود والذَّاريات) القصد منهما البُشرى، ومحادثتي (الحجر والعنكبوت) القصد منهما الإنذار؛ فكان سياق الإكرام مناسبًا للأُوَّل، وسياق الوجَل أليق بالثَّواني، على أنَّ سياقات السُّور التي انطوت على هذه المحادثات جميعًا يتجاذبها القصدانِ: التَّرغيب، والتَّرهيب.

المحادثة الخامسة: محادثته النَّمرود

تشتمل سورة البقرة على محادَثتَينِ؛ تتعلَّق بقصَّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام لا تنفكُّ إحداها عن الأخرى؛ أمَّا الأولى فهي محادثته مع النُّمرود التي تفسِّر وجودَ الثَّانية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

يحدَّد النصُّ الكريم هُويَّة المحاجج بأنَّه ذو ملك؛ فيتكشَّف لنا قصد الحوار، عاود إبراهيم عليه السلام ههنا إستراتيجيَّته بتوظيف صفاتِ الله الأزليَّة في الإجابة عن سؤالٍ حجاجيّ مضمرٍ؛ فمتلقِّي هذه المحادثة يفترض سؤالًا سابقًا لجواب إبراهيم عن ماهيَّة ربِّه؛ فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، جاعلًا منهما أسَّ دفاعه عن دينه، لكن خصمه لم يرضخْ للحجَّة؛ فقال مُغالطًا[2]: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، هذه العبارةُ لا يُدرك قصدُها إلَّا بعد النَّظر في هُويَّة المحاجج أنَّه ملك جبَّار يقتل مَن

(١) ينظر لمسات بيانيَّة في نصوص من التنزيل: ٨٣-٨٩.

(٢) حجاج المغالطة: هو ضرب من الألاعيب القوليَّة التي كان يبيحها السفسطائيُّون لكسب القضايا والتأثير في السامعين، وصولًا للإقناع، وهو خطاب التضليل. ينظر: الحجاج مفهومه ومجالاته: ٢٠٠.

يشاء[1]، لكن إبراهيم الذي آتاه الله الحجَّة غير مرَّة[2]، يردُّ بحجَّة مُفحمة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ فلمَّا كان محاوره سلطانًا جبَّارًا يمكنه الإحياء، والإماتة بحسب ما يرى؛ فما كان من إبراهيم إلَّا أن ينظر فيما هو خارج سلطانه (الشَّمس)؛ فما كان من خصمه إلَّا الإذعان لشمس الحجَّة التي لا تقبل المناورة ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾؛ ثـمَّ تأتي الجملة اللاحقة موضِّحة أنَّ الهداية للحقِّ، والجهر به من الله؛ لذا بهت الذي كفر، لكن النصَّ يفترض نصًّا مضمرًا يستشفُّه القارئ وهو أنَّ إبراهيم أُلهم هذه الحجَّة هدايةً من الله؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يُشفُّ عن أنَّ إبراهيم عليه السلام أهلٌ للهداية؛ لأنَّه ليس من الظالمينَ؟.

لا تنفكُّ هذه المحادثة عن اللاحقة لها في السُّورة نفسها، لكنَّنا سنعالجها بشكلٍ مُنفصل لتطرد منهجيَّة البحث.

المحادثة السَّادسة: محادثته مع الذَّات الإلهيَّة

يبدو أنَّ فكرة الإحياء، والإماتة التي استدلَّ بها على عظمة الله، وردَّها النمرود بأسلوبٍ مُغالطيّ ما زالت شاغلة تفكير إبراهيم عليه السلام؛ ففتحت أمامه بوَّابة من التَّساؤلات تكلَّلتْ بطلبه من ربِّ العزَّة أن يريَه الإحياء بنفسه، لكن قبل البحث في هذه المحادثة، والقصد منها، لا بدَّ من النَّظر إلى القِصَّة التي كانت بمثابة الجملة المعترضة بين المحادثتين، قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ

(١) فمن عادة الملوك قتل مَن يشاءون قتله، قال ابن القيِّم: «إنَّ من محدِّدات القصد العُرف والعادة». ينظر: إستراتيجيَّات الخطاب: ١٨٢.

(٢) قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

إنَّ المحادثتَين (محادثة النَّمرود، ومحادثة الذَّات الإلهيَّة)، والقصَّة المعترضة بينهما سِيقَتْ جميعها؛ لتكشف للرَّسول الأعظم بوصفه مُتلقِّيًا أوَّل للخطاب، وللمسلمين، وغيرهم بوصفهم متلقِّين ثانِين عظمة الله ﷻ، وقدرته المطلقة التي بعضها الإحياء والإماتة، وضرب الأمثلة لفكرة البعث التي لاقت كثيرًا من الرَّفض، والإنكار من المشركين[1]، يساوق هذا النصّ الإطاريّ الذي تضمَّن هذه المحادثات، وهو قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[2]، وكذا يعزِّز هذا ما قيل على لسان إبراهيم عليه السلام للذَّات الإلهيَّة بشأن إحياء الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. النَّاظر في المحادثة يجد أنَّ إبراهيم، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ يجد أنَّه لم يسأل على الموت؛ لأنَّه الحقيقة الوحيدة التي أدركها الإنسان، لكن فكرة الحياة بعد الموت هي التي ينالها التَّشكيك، ويتذبذب المرءُ فيها بين التَّصديق، والتَّكذيب.

قال تعالى: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ هو يؤمن، ولكن يريد أن يطمئنَّ قلبُه، ألا يُطمئن الإيمان القلب؟ إنَّ الاطمئنان الذي يبتغيه إبراهيم عليه السلام هو الاطمئنان الموصل للمعرفة اليقينيَّة بالدَّليل العقليّ[3]؛ لذا قال تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً

(١) انظر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨].

(٢) «قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: ألم ترَ، يا محمَّد، إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه». تفسير الطبري (جامع البيان)، ت شاكر: ٥/ ٤٣٢.

(٣) قال الزمخشريّ: «لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ليزيد سكونًا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال=

﴿مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾، إنّه تجريب عمليّ للإحياء بعد الموت، وكان على إبراهيم أن يقوم بفعل الإماتة بنفسِه ليتثبّت من موت الطير، وإن كان النصّ الكريم قد سكتْ عن التّصريح بهذا الفعل؛ فهناك فجوة حدثيّة بين قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ...﴾ وهو فعل الإماتة، والتّقطيع[1]، وأحسب أنّ فعل الإماتة أعقد من أن يصّرح به؛ فإن إنهاء حياة مخلوق على يد مخلوق آخر الفاعل فيه ظاهريّ؛ أمّا جوهر الفعل فهو فعل إلهيّ حتمًا يتحقّق الموت، والبعث منه بطير واحد لمَ قال جلّ وعلا ﴿أَرْبَعَةً﴾؟.

إنَّ «العقل الفطريّ المجرَّد مفطور على مبدأ ثبوت هُويَّة الأشياء، وإطراد الطبيعة؛ لذلك يستعمل الاستقراء الرياضيّ (مرَّة + ٣ مرات) ثمَّ يعمِّم من ذلك مقدِّمة كلِّيَّة كُبرى تعبِّر عن علاقات التَّضمُّن، وفحواها بديهة: خصائص الجزء موجودة في الكلِّ»[2]، إذن فجدوى التعدُّد هو التثبُّت من التجربة[3].

=وتظاهر الأدلَّة أسكَن للقلوب وأزيَد للبصيرة واليقين، ولأنَّ علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروريّ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك». الكشَّاف: ١/ ٣٣٧

(١) قال ابن عاشور: «وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ عَطْفٌ عَلَى مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ جُزْءًا؛ لِأَنَّ تَجْزِئَتَهُنَّ إِنَّمَا تَقَعُ بَعْدَ الذَّبْحِ. فَالتَّقْدِيرُ فَاذْبَحْهُنَّ ثُمَّ اجْعَلْ إِلَخ». التحرير والتنوير: ٣/ ٤٠.

(٢) المنطق العلائقي في عهد الإمام عليّ عليه السلام لمالك الأشتر رضي الله عنه من منظور منطق نظريَّة علم النقطة: ٢٢٣، مجلَّة المبين، ع٦، السنة الثالثة، آذار ٢٠١٨.

(٣) قال ابن عاشور: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ حِكْمَةَ التَّعَدُّدِ وَالِاخْتِلَافِ زِيَادَةٌ فِي تَحَقُّقِ أَنَّ الْإِحْيَاءَ لَمْ يَكُنْ أَهْوَنَ فِي بَعْضِ الْأَنْوَاعِ دُونَ بَعْضٍ، فَلِذَلِكَ عُدِّدَتِ الْأَنْوَاعُ». التحرير والتنوير: ٣/ ٣٩.

قِطافُ البحث

الحمد للهِ الذي بفضله تتمُّ الصَّالحات...

لطالما كانتِ البحوثُ القرآنيَّة منية الباحِثين، وغبطة الدَّارسين، ومنتهى السُّرور حين تكتمل البحوث وتُجنى قطافها، ولبحثنا في المحادثة القرآنيَّة نتائجُ يمكن إجمالُها في ما يأتي:

- تلمَّس فلاسفةُ اللغة مظاهرَ القصد في الخطاب؛ فكانتِ القصديَّة الأصليَّة، والقصديَّة المشتقَّة، ثمَّ صارتِ الأصليَّة المشتقَّة على قسمَين: قصد إعلاميّ، وقصد اتِّصاليّ، وقد حضرت هذه مقاصد جميعها في المحادثة القرآنيَّة.
- يعدُّ القصد العنصرَ الذي لا بدَّ منه في الخطاب؛ فلكلِّ خطابٍ قصدٌ.
- تنماز المحادثة القرآنيَّة من سواها من المحادثات بأنَّها خطاباتٌ ثانويَّة تلفُّها خطابات أكبر تتمثَّل بالسُّورة القرآنيَّة التي ترد فيها.
- بلحاظ النُّقطتينِ: الثَّانية، والثَّالثة يمكننا القول: إنَّ للمحادثة القرآنيَّة قصدَين: الأوَّل قصد المحادثة نفسها، والثاني قصد السُّورة بتمامها بوصفها خطابًا، إلى جانب مقاصد أُخر التي أقرَّتها فلسفة اللغة.
- تتَّسم محادثات سيِّدنا إبراهيم عليه السلام بسيادة العقل، وهيمنة البرهان عليها، لاسيَّما في محادثاته مع أبيه وقومه والنَّمرود؛ لذا نلمس حضورًا واضحًا للحِجاج، وأدواته المنطقيَّة، واللغويَّة متَّخذا إيَّاه وسيلةً للإقناع، والتَّأثير.

- يغيب الحجاجُ عن محادثته مع نفسِـه، ومحادثته للذَّات الإلهيَّة المقدَّسة؛ لأنَّه لم يردِ الإقناع، والتَّأثير؛ بل أراد المعرفةَ، والكشفَ.
- يختلفُ المغزى من إيراد المحادثة نفسِـها بتشـكيل لغويّ مختلفٍ بحسْـب القصد من السُّـورة التي ترد فيها المحادثة، وخير مثال على ذلك محادثاتُه مع الملائكة في البُشرى، وقوم لوط، كما جاء تفصيله في البحث.

وفي الختام: أرى أنَّ موضوع المحادثةِ القُرآنيَّة، ودراستها بحسب نظريَّات المحادثة من المواضيع الجديرة بالعِناية، والبحث الأكاديميّ المطوَّل.

والحمد للهِ ثانيةً على عظيم نعمائه

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. الإستراتيجيَّة التوجيهيَّة في سورة مريم في ضوء تداوليَّات الخطاب، في مجلَّة لاراك للفلسفة واللسانيَّات والعلوم الاجتماعيَّة، كليَّة الآداب، جامعة واسط، كانون الثاني ٢٠١٧، ج٢، ع٢٤، (بحث).

٢. إستراتيجيَّات الخطاب، مقاربة لغويَّة تداوليَّة، د. عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد، المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٣. آفاق جديدة في البحث اللغويّ المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.

٤. الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ من الوعي بالخصوصيَّات النوعيَّة للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، للعياشيّ أدراوي، دار الزمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١١م.

٥. إطلالات على النظريَّات اللسانيَّة والدلاليَّة في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة بإشراف د. عزّ الدين مجدوب، المجمع التونسيّ للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ٢٠١٢م.

٦. الإنشاء في العربيَّة بين التركيب والدلالة دراسة نحويَّة تداوليَّة، للدكتور خالد ميلاد، نشر جامعة منوبة، المؤسَّسة العربيَّة للتوزيع، تونس، ط١، ٢٠٠١م.

٧. البحر المحيط، تأليف أثير الدين محمَّد بن يوسف الشهير بأبي حيَّان الأندلسيّ (ت٧٥٤هـ)، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، د.ت.

٨. التحليل اللغويّ عند مدرسة أُكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحقِّ، ط١، ١٩٩٣م، دار التنوير للطباعة والنشر.

٩. التصوير الفنِّيّ في القرآن الكريم، السيِّد قطب، مكتبة القرآن (١)، دار الشروق.

١٠. تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمَّد الطاهر بن عاشور، الدار التونسيَّة للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١١. تفسير الطبريّ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لأبي جعفر محمَّد بن جرير الطبريّ (ت

٣١٠هـ)، تحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركيّ، هجر للطباعة والتوزيع والنشر، ط١، ٢٠٠١م.
١٢. تفسير الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ (٥٣٨هـ)، اعتنى به وعلَّق عليه خليل مؤمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.
١٣. تنزيه الأنبياء، لأبي القاسم عليّ بن الحسين الموسويّ المعروف بالشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، انتشارات الشريف المرتضى، ط١.
١٤. دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيريَّة، د. محمَّد إقبال عروي، ط١، ٢٠٠٧م، روافد، الكويت.
١٥. التواصل والحجاج، عبد الرحمن طه، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، د.ت.
١٦. العقل مدخل موجز، جون سيرل، ترجمة د. ميشيل حنا متياس، عالم المعرفة ٣٤٣، سبتمبر، ٢٠٠٧م.
١٧. العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعيّ، جون سيرل، ترجمة د. سعيد الغانميّ، الدار العربيَّة للعلوم، ناشرون، المركز الثقافيّ العربيّ، ط١، ٢٠٠٦م.
١٨. القاموس الموسوعيّ للتداوليَّة، جاك موشلار وآن ريبول، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عزّ الدين المجدوب ومراجعة خالد ميلاد (المركز الوطنيّ للترجمة في تونس)، دار سيناترا، تونس، ٢٠١٠م.
١٩. قضايا الفن الإبداعيّ عند دوستويفسكي، م.ب. باختين، ترجمة د. جميل نصيف التكريتيّ، مراجعة د. حياة شرارة، ط١، بغداد، ١٩٨٦م.
٢٠. اللسان والميزان أو التكوثر العقليّ، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافيّ العربيّ، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
٢١. لمسات بيانيَّة في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرَّائيّ، دار عمار للتوزيع والنشر، عمان، ط٣، ٢٠٠٣م.
٢٢. مدخل إلى علم لغة النصّ، فولفجانج هاينهمان وديتر فيهفجر، ترجمة د. سعيد البحيريّ، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د.ت.
٢٣. المنطق العلائقيّ في عهد الإمام عليّ عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله من منظور منطق نظريَّة علم النقطة، مجلَّة المبين، ع٦، السنة الثالثة، آذار، ٢٠١٨م، (بحث).
٢٤. نظريَّة أفعال الكلام العامَّة (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني،أفريقيا الشرق، ١٩٩١م.